

نيسان/أبريل 2016

## اضمحلال دور المدينة في الثورة السورية

عصام الخفاجي\*

غالباً ما يُنظر إلى الثورة السورية، التي آلت إلى حرب استنزاف دموية، باعتبارها ثورة الأغلبية السنية في سوريا للإطاحة بنظام ينتمي إلى الأقلية العلوية. وإن أمكن أن تقدم هذه النظرة شرحاً فيه جزء من الحقيقة؛ فإنها تفشل في شرح لماذا تختلف درجة المشاركة في التمرد بين المناطق السنية إلى حد كبير، وفي تفسير الهوة المتعظمة بين الحواضر المضادة للأسد من جهة والمليشيات المسلحة من جهة أخرى، كما أنها تفشل أيضاً في تقديم تفسير مقنع للاختلاف الواسع داخل معسكر الثوار أنفسهم، والعداوة المتزايدة بين المجموعات المعارضة.

تنظر هذه الورقة في التركيبات الاجتماعية والإقليمية داخل المجتمع السوري: سكان المدن وسكان المحافظات والعشائر، والنازحين من الأرياف إلى العشوائيات على أطراف المدن الكبرى. وهي تحاجج في أن الانتفاضة المُعسكرة التي بدأت كردة فعل على الاضطهاد الأخرق من قبل النظام؛ قد أظهرت الخلافات بين هذه المجموعات المختلفة للعلن، وجعلت من الثورة السورية نسيجاً وحدها مقارنة مع الثورات الأخرى في العالم العربي. وتركز أكثر على فكرة أن عسكرة الثورة قد مكّنت الفئات المهمّشة من النازحين أن يأخذوا بزمام الأمور في القتال ضد النظام. بيد أن الدور القيادي لهؤلاء المهمّشين قد ترك تأثيراً كبيراً على مسار الأحداث وسوف يلعب دوراً رئيسياً في تشكيل المشهد السياسي الاجتماعي في حقبة ما بعد الأسد.

منذ انطلاقتها، اختلفت الثورة السورية ضد نظام البعث عن الثورات في تونس ومصر وليبيا واليمن. ومع أنّها قد تُعزى إلى المظاهرات الأولى التي خرجت في آذار/مارس 2011 في دمشق؛ فإنّ الثورة لم تستجمع زخمها إلا بعد عصيان درعا ووفاة اثنين من شبانها تحت التعذيب. لقد انتفضت سوريا ضد النظام (باستثناء ثلاث محافظات هي السويداء، طرطوس، الرّقة)، ورغم ذلك، لم تشهد حلب أكثر المدن السورية اكتظاظاً احتجاجات حاشدة، ماثلها في ذلك العاصمة دمشق. تأتي هذه الظاهرة بتناقض صارخ مع بقية ثورات العالم العربي حيث أخذت العواصم، أو ثاني أكثر المدن أهميةً كما في ليبيا، الدور القيادي وختمت مصير أنظمتها الحاكمة. في الواقع، يمكن وصف الثورة المصرية بأنّها ثورة الشمال المصري (مصر السفلى) حيث إن صعيد مصر (مصر العليا)، وكذلك الجزء الشرقي من البلاد، أخذوا موقفاً سلبياً مستغرباً.

كُتب الكثير عن استياء غالبية الأكثرية السكانية السنية في سوريا من هيمنة الأقلية العلوية داخل هيكل السلطة منذ منتصف 1960، ومن الطبيعي أنّ لهذا الجانب من الصراع أهمية قصوى. غير أنّ هذه الورقة البحثية تناقش وجود عاملٍ آخر لا يقل أهمية، وإن لم يقتصر على سوريا، فقد أدّى إلى عسكرة ثورتها، هو الفوارق الاجتماعية بين المدن والمحافظات والعشوائيات والمناطق القبليّة.

وتعكس الطريقة التي تفاعلت وفيها مناطق مختلفة مع الثورة تركيبها الاجتماعية بالمعنى الكبير للكلمة، والتي ستلعب دوراً حاسماً في تشكيل المشهد الاجتماعي والسياسي في سوريا ما بعد النزاع. أقترح هنا البحث في ثلاثة أنماط لتجاوز مسألة الحرب القائمة: أولاً القبليّة، وثانياً الحضرية، وثالثاً، والأكثر فاعليّة، يتألف من النازحين الجُدد الذين توافدوا إلى ضواحي المدن الكبرى، يقيمون عشوائياتهم وأحياءهم الفقيرة. إذ لكلّ من هذه المجموعات ديناميكيّتها وإدراكها الخاصين بالأزمة ولها أيضاً أهدافها المتمايزة. وقد بدأت التوترات والنزاعات المتولّدة عن هذه الديناميكيات المتباينة تترك أثرها على مجرى الأحداث.

## جغرافيّة البؤس

يقدم الاستطلاع الشامل الذي أجراه برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الفترة ما بين 1997-2007 حول الفقر وعدم المساواة في سوريا مادةً لا تقدّر بثمن لفهم خلفية الثورة السورية (أبو إسماعيل وآخرون، 2011). قسّمت الدراسة سوريا إلى أربعة أقاليم: الجنوب ويضم دمشق وريفها: درعا والسويداء والقنيطرة، شمال وشرق البلاد مكوناً من إدلب وحلب والرقة ودير الزور والحسكة، المنطقة الوسطى وتشمل حمص وحماه، المنطقة الساحلية وتشمل اللاذقية وطرطوس<sup>1</sup>.

وجدت الدراسة أنّ الإنفاق الاستهلاكي في المناطق الحضرية من المحافظات الساحلية العلوية أعلى بنسبة 130% من المتوسط الوطني للمناطق الحضرية في سوريا، وأنّ إنفاق الريف في تلك المنطقة أعلى بنسبة

<sup>1</sup> لسوء الحظ، لم تُدرج دمشق منفصلة، إذ كان من شأن ذلك إعطاء دلالات قيّمة عن الأوضاع في محافظتي درعا وريف دمشق المهمشتين. وبالأسلوب نفسه شملت حلب مع أقر المحافظات السورية في المجموعة نفسها وتحت التصنيف ذاته.

150% من المتوسط الوطني للريف السوري<sup>2</sup>. وعلى النقيض، كان إنفاق المناطق الريفية في شمال وشرق البلاد حوالي 60% من المتوسط الوطني في حين أنّ إنفاق المناطق الحضرية أقل قليلاً من المتوسط الوطني السوري.

ويسلّط الاستطلاع الضوء أيضاً على حالة الفقر في سوريا. ولئن انخفضت مستويات الفقر بين عامي 1997 و2004؛ فإنها عاودت الارتفاع بين 2004-2007، وفي السنة الأخيرة بات أكثر من ثلث السكان فقراء (6.7 مليوناً من أصل مجموع السكان البالغ 23 مليوناً)، وعاش منهم 2.4 مليوناً فقراً شديداً.

ومن غير المفاجئ أن تكون المنطقة الشمالية الشرقية الأكثر فقراً في حين أنّ المنطقة الساحلية هي الأقل. حيث عاش أكثر من ثلث سكان المنطقة الأولى (37%) الفقر، بينهم 15.4% عاشوا الفقر الشديد. ومن الجدير بالملاحظة أنّ مستويات الفقر الشديد في حواضر الجنوب قد تضاعفت بين عامي 2004 و2007. ولما كانت دمشق أكثر المدن حضرية في الإقليم الجنوبي، فمن المبرر اعتبار النسبة مؤشراً على مستويات الفقر فيه. إذ انحدرت المنطقة الجنوبية بشكل عام من كونها الأقل فقراً عام 2004 لتصبح ثاني أفقر الأقاليم عام 2007.

#### ومن نتائج الدراسة ذات الصلة بهذه الورقة:

1. في عام 2004 وبينما انتشر الفقر في سوريا بشكل عام في المناطق الريفية أكثر من المناطق الحضرية (62% في المناطق الريفية)، كان للإقليم الشمالي الشرقي (إدلب وحلب والرقّة ودير الزور والحسكة) النصيب الأعظم، إذ ارتفعت فيه معدلات الفقر وعمقه وحدته. وجاء في تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي لعام 2005 "الفقر في سوريا 1996-2004" أنّه باستخدام خط الفقر الأدنى، تبلغ معدلات الفقر ذروتها في ريف الإقليم الشمالي الشرقي (17.9%) تليه المناطق الحضرية من هذا الإقليم (11.2%) حيث يعيش 38.8% من الفقراء. وبالطريقة نفسها، تزيد معدلات الفقر المدقع في الإقليم الشمالي الشرقي أربع مرات عن الإقليم الساحلي.
2. انخفض الفقر في سوريا بشكل عام بين الأعوام 1996-1997 و2003-2004، إلا أنّ الأنماط بين الأقاليم لم تكن موحدة. حيث هبط معدل الفقر بسرعة في الإقليمين المتوسط والجنوبي، لاسيما في المناطق الريفية. وجاء الانخفاض معتدلاً في المناطق الحضرية من الإقليمين الشمالي الشرقي والساحلي، في حين ارتفع الفقر فعلياً في أرياف هذه الأقاليم.
3. وعلى المستوى القومي، لم يكن النمو مالياً للفقراء. فقد استفاد الأفراد غير الفقراء (فوق العشرية الثالثة في توزيع الإنفاق) من نتائج النمو الاقتصادي أكثر نسبياً من غير الفقراء. كما ارتفعت اللامساواة في سوريا بشكل عام بين الأعوام 1997 إلى 2004. وفي عام 2003-2004 استهلك الـ 20% الأدنى من السكان 7% فقط من مجمل النفقات في سوريا، في حين استهلك الـ 20% الأكثر ثراءً 45%. ونظراً لغموض وعدم شفافية النظام الاقتصادي السياسي في سوريا، يجدر بنا أن نفترض أن استهلاك، أي دخل هذه الزمرة، أعلى من ذلك بكثير، إذ لدى الأغنياء طرقٌ كثيرة في إخفاء

<sup>2</sup> غطى الاستطلاع الإنفاق الاستهلاكي للأسرة المعيشية. إذ يعتبر الإنفاق الاستهلاكي للأسرة المعيشية في البلدان التي يمكن أن يتسّر فيها الأفراد وقطاع الأعمال على القيم الحقيقية لدخلهم نتيجة عدم وجود طرق قانونية حازمة لمراقبتهم، المؤشر الأكثر دقة على الدخل، والثروة، والفقر.

ثرواتهم الحقيقية. وقد اعترفت السلطات السورية ذاتها بهذه الفجوة الضخمة والمتزايدة بين الأغنياء والفقراء. حيث صرّح نائب رئيس الوزراء السوريّ عبد الله الدردري، ربيع عام 2008، أنّ حالة الفقراء تزداد سوءاً، وأنّ الأغنياء يزدادون ثراءً، وأنّ ظاهرة التفاوت الطبقيّ باتت أكثر بروزاً (المركز الاستراتيجي، 2011).

وقد شهدت السنوات الثلاث التي فصلت نشر ذلك التقرير القاتم عن اندلاع الثورة مزيداً من تدهور الفقر العام في سوريا، إضافةً إلى التغيّر الديموغرافي. فمنذ عام 2007، سبّب الجفاف عوزاً كبيراً في الأرياف السورية. وتردد الخبر عن 160 قرية في الشمال الشرقي من البلاد تمّ هجرها تماماً وانتقل سكانها إلى المناطق الحضرية. (براون وكراوفورد، 2009: 26). كما شهدت قبيلة العنزي شرق سوريا بين عامي 2005 و2010 نفوق ما يقارب 85% من قطعان ماشيتها نتيجة الجفاف الذي طال أمده. وقدّرت الأمم المتحدة في عام 2010 أنّ أكثر من مليون شخص قد غادروا شمال شرق سوريا، "ببساطة لا يستطيع الفلاحون زراعة ما يكفي للغذاء وهم غير قادرين على جني المال اللازم لسدّ رمقهم" (دي شاتيل، 2014: 521-535)<sup>3</sup>.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الكوارث الطبيعية حدّت ذاتها لا تحرّض على تمرد الشعوب أو عصيانها. فقد واجهت المنطقة بأسرها ومن ضمنها دول أكثر فقراً كالأردن أشدّ موجات الجفاف المسجلة منذ قرون. بيد أنّ سياسة النظام السوري المتهوّرة بذريعة "الأمن الغذائي" استنزفت موارد المياه الشحيحة في سوريا متجاهلةً التحذيرات التي أطلقتها هيئات عديدة مرموقة منذ النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين. كما أنها تخلّت عن الفقراء الجدد النازحين إلى ضواحي المدن الكبرى تاركَةً إياهم يواجهون مصائرهم، حيث أدبرت عنهم النخبة الحاكمة دون أن توقّر الحدّ الأدنى من الضروريات لمساعدتهم في التعامل مع يؤسهم. زيادةً على ذلك، فإنّ الجموع الفقيرة التي كانت قد سمعت عن ثراء الحكام والمحسوبين عليهم قبل هجرتها شهدت هذه المرّة بأمّ عينها سرعة تكاثر النوادي الخاصة والفنادق الراقية، والفلل المترامية الأطراف والسيارات الفارهة، لذوي الامتيازات. وحتى التشنّق المأجور من قبل الإيديولوجية الرسمية "بالدفاع عن الفقراء" قد اختفى صوته.

وقد بين العديد من مؤرخي الحركات الثورية في الأنحاء المختلفة من العالم أنّ الناس، في أكثر الأحيان، لا يقومون بالثورات إذا ما شعرت الغالبية أنّ ارتفاع الظروف الاقتصادية العامة أو انخفاضها في دولهم يتشاطرهما الأغنياء والفقراء معاً. فالفقر بذاته ليس محفزاً للثورات؛ بل إنّ الناس يصبحون أكثر قابليّةً للثورة في حالات النُمو الاقتصادي المصحوبة بإدراكٍ واسع من الفقراء لتزايد الفجوة بينهم وبين الأغنياء، أو لمدى ركود مستوى معيشتهم أو تدهوره (ماريك، 1966؛ أوفرهولت، 1977؛ رستين 2002)<sup>4</sup>.

وهذا بالضبط ما كان عليه حال سوريا عشية ثورة 2011. فالناتج المحلي الإجمالي السوري للفرد أخذ بالانخفاض خلال ثمانينيات القرن العشرين ودخل مرحلة الركود في تسعينياته. ولكنّ هذا المنحى قد انعكس

<sup>3</sup> يُنظر أيضاً: أيبغيل فيلدينغ-سميث، "الانتفاضة تكشف مواطن ضعف الاقتصاد السوري"، فاينانشال تايمز، 12 كانون الأول/ديسمبر 2011؛ براد بلومر، "ساعد الجفاف على اندلاع الحرب السورية. هل ستجلب التغيرات المناخية المزيد منها؟"، واشنطن بوست، 10 أيلول/سبتمبر 2013.  
<sup>4</sup> إنّ الاضطرابات الكبيرة خلال فترات الركود أو التدهور في مستويات المعيشة أكثر قابليةً لإنتاج "الثورات المضادة" صعود وانتصار النازية مثال على ذلك (شونديرباوم، 1980؛ مان، 2005).

منذ بداية عام 2000 مع معدلات نموّ سنوية مثيرة للإعجاب بين 4.5% و7% على الأساس السنوي بين عامي 2004 و2009 ومن ثمّ تباطأ إلى 3.2% عام 2010<sup>5</sup>. رغم ذلك كان التفاوت الصارخ في أشد حالاته حيث تحقق هذا النموّ المدهش مع أنّ البطالة قطعت أشواطاً بارئفاها من 24% عام 2004 لتصل 39.4% عام 2011<sup>6</sup>.

وخلصا القول: إنّ سوريا كانت تزدا غنى بينما فقراؤها يزداون فقراً. وأضيفَ إلى هذا الوضع المتقلّب ثراء المنطقة العلوية -وضع من شأنه تحويل المظالم الشعبية إلى مظالم طائفية- الذي ولّد أعمالاً عدائية حيث إنّ العديد من المحتجين، إن لم يكن الغالبية منهم، لم ينظروا إلى العدالة كاتقسام طبقي بحت بل كاتقسام طبقي مصوغ بعبارات طائفية.

وإضافةً إلى ذلك، خضعت سوريا خلال السنوات الخمس التي سبقت الانتفاضة لتغيّر عميق في ديمغرافيتها. فارتفاع مستويات الفقر جرّ موجات المهاجرين إلى ضواحي المدن الكبرى، لاسيما دمشق وحلب، مؤدياً إلى تضخم أعداد سگان الأحياء الفقيرة.

وفي الوقت نفسه، تعززت القبالية في دير الزور نتيجة الزيادات الكبيرة في أعداد السكان. وقد ترافق هذا التغيّر مع ارتفاع عدد سكان سوريا في الفترة ما بين 2000-2010 بنسبة 24.5%، وبلغت نسبة الزيادة السكانية في محافظة ريف دمشق 34.1%، بينما زاد سكان مدينة دير الزور بنسبة 32.4%، وكانت هذه النسبة 29.9% في درعا (المكتب المركزي، 2012: الجدولين 1-2). ولذا نجد أنه عندما ثار السوريون ضد نظام الأسد، كان من الطبيعي أن تتخذ ثورة كل مجموعة من المجموعات المضطهدة نمطاً مختلفاً يوافق التكوين الاجتماعي السائد في منطقتها. ونظراً لعدم وجود هيئة تقوم بتنسيق أعمال الثورة على المستوى الوطني يمكن الحديث عن ثورات متوازية.

إنّ مصطلح "الثورة" بمعناه الدقيق قد ينطبق على المنطقة الغربية المكتظة سكانياً والممتدة من إدلب في الشمال إلى درعا في الجنوب، في حين وجدت المناطق الشرقية والشمالية (دير الزور، والحسكة، والرقة) نفسها في خضمّ نوعٍ مختلفٍ كلياً من الاضطرابات، فحتى الجماعات المسلحة المقاتلة ضد النظام في هذه المناطق بدت منفصلة. وإذا نحينا الأكراد جانباً، حيث وضّحوا منذ البداية أنّ معركتهم ليست موجّهة ضدّ النظام إنّما يخوضونها بهدف إقامة حكمٍ ذاتي بصرف النظر عن أية تسوية سياسية ناتجة؛ فإن القبائل العربية لم تظهر اهتمامها بإيصال القتال إلى دمشق. والمحزن، أنّ انخراط المناطق الشرقية والشمالية الشرقية في الحرب السورية أتى فقط بعد سيطرة جبهة النصرة ولاحقاً داعش على المنطقة. في هذا الوقت كان ما قد بدأ كثورة قد تحوّل ببشاعةٍ إلى حمّام دماء.

<sup>5</sup> <http://www.tradingeconomics.com/syria/gdp-growth-annual>

<sup>6</sup> <http://www.cbssy.sy/peoplestatistics>

ولئن أمعنا النظر في تكوينات الثوار في كل منطقة وفي دوافع ثوراتهم فإننا قد نلقي بعض الضوء على الفرضيات المذكورة أعلاه.

## ثورة المنطقة الداخلية

لماذا من درعا امتدت الثورة إلى أجزاء أخرى من سوريا؟ فدرعا لم تكن المنطقة الأكثر فقراً. ووفقاً لتقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائي المشار إليه آنفاً كانت درعا مدرجة ضمن المنطقة الجنوبية التي جاءت أقل المناطق فقراً عام 2004 مع تراجعها لتكون ثاني أكثر المناطق فقراً عام 2007، في حين عانت المنطقة الشمالية الشرقية من أعلى مستويات الفقر في كلا الفترتين. ودق الجفاف الشديد والهجرات الجماعية نواقيسهما في دير الزور شرق البلاد وليس في درعا.

وأكثر من ذلك، فقد ظلت محافظة الرقة في الشمال الشرقي الذي يضربه الفقر في انعزال ملفتٍ عن مسار الثورة. كذلك تعجز الهيكلية القبليّة عن تفسير دور درعا الريادي في إشعال الثورة. فالهياكل القبليّة في دير الزور، والحسكة والرقة مترسخة أكثر بكثير مما هي عليه في درعا، بفارق وحيد أنّ الأخيرة تخضع لهيمنة عشائر صغيرة (ديهمان، 2015: 3).

إذاً كيف يتأتى أنّ نفسّر شدّة استجابة مواطني درعا التي أوقدت شعلة الثورة؟ فمن المعروف أنّ الممارسات الشنيعة من قتلٍ للأبرياء تحت التعذيب لم تكن خافية عن المسامع أثناء الحقب المختلفة لسوريا البعث وعلى الأرجح أنّها كانت ستقابل في ظل ظروف أخرى بغضبٍ مكتوم. وقد يكمن أحد الأسباب في حقيقة أنّ الظروف المعيشية في درعا قد تدهورت بسرعة في غضون ثلاث سنوات فقط، بينما كان الشمال الشرقي دائماً أفقر المناطق السورية. وبدلاً من ذلك، ربما تستطيع العلاقة المميّزة بين درعا والدولة البعثية إضافة بعض القرائن.

فقد كانت درعا معقل الحزب العربي الاشتراكي، الذي أسسه وتزعّمه أكرم الحوراني، وهو نفسه من درعا، إلى أن دُمج ذلك الحزب مع البعث في عام 1951 ليشكل حزب البعث العربي الاشتراكي. ووفقاً لبطاطو (1999: 180-181) شكّل الأعضاء العاملون في حزب البعث من درعا ما نسبته 5.4% من العدد الإجمالي عام 1979، و5.3% عام 1992. ولوضع هذه الأرقام في نصابها، ينبغي مقارنتها مع العاصمة دمشق المركز السياسي للدولة والتي يبلغ عدد سكانها ثلاثة أضعاف عدد سكان درعا. والمثير للدهشة أنّ حصّة العاصمة من إجمالي عدد الأعضاء تجمدت عند 6.3% خلال تلك الفترة<sup>7</sup>. والأكثر أهمية هو عدد أعضاء القيادة القطرية الذين قدّموا من درعا في الفترة ما بين عامي 1970 و1997. فضمن مجمل أعضاء القيادة البالغ 48 عضواً هناك ستة من درعا، وهو ذات عدد الأعضاء الذين قدّموا سواء من دمشق أو اللاذقية أو حمص. والجدير بالذكر أنّه لم يكن في القيادة القطرية أيّ عضوٍ من الحسكة أو الرقة، المحافظتين اللتين لعبتا دوراً ضئيلاً في الانتفاضة (بطاطو، 1999: 248).

<sup>7</sup> إنّ زَعَم ديهمان أنّ تقريراً حزبياً داخلياً كان قد حدد عدد الأعضاء العاملين في حزب البعث في درعا قبيل الثورة بـ 90.000 يبدو بعيد الاحتمال نظراً لأنّ هذا العدد كان قد بلغ 11.700 عام 1992 (دحمان، 2015: 6).

كان سكان درعا مسيسين إلى درجة عالية، وقد أعربت الكثير من الأسر في درعا عن امتنانها الاجتماعي والاقتصادي الدائم للمحابة والمحسوبية، بما في ذلك توسيع الحماية لتشمل أولئك الذين يعملون في أنشطة التهريب المربحة التي تشكل العمود الفقري للاقتصاد في درعا<sup>8</sup>. لقد شهدت درعا انحسارها الأكبر في عهد بشار الأسد مع أنّ العديد من شخصياتها بقيت تشغل مناصب حكومية عليا. إذ بعد اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري وانسحاب القوات السورية من لبنان أطيح باللواء رستم غزالة الذي تصرّف باعتباره الحاكم السوري على لبنان، وكان مطلق القوة. وقبل ذلك بخمس سنوات طُرد رئيس الوزراء محمود الزعبي وأتهم بالفساد، تلا ذلك مباشرة صدور بيان رسمي يعلن انتحاره. كذلك نُحّي القياديان البارزان في حزب البعث سليمان قذاح ومحمد جابر بجبوج عن القيادة القطرية للحزب. أمّا الذين استمروا على رأس مناصبهم عقب الثورة فإنهم إمّا كانوا قد ولدوا وعاشوا في دمشق (كنايب الرئيس فاروق الشرع)<sup>9</sup> أو أنهم لا ينتمون إلى إحدى العشائر الكبيرة (كنايب وزير الخارجية فيصل المقداد). وليس بالغيرب أنّ تقوم عشيرتنا الزعبي والمسالمة بتنظيم أولى المظاهرات (درخام، 2014: 8). ولم يكن هناك مفرّ من أن يربط أهالي درعا تدهور أوضاعهم الاقتصادية مع تراجع مرتبتهم السياسية داخل النظام.

## العشائر المتربصة

لعبت المناطق التي يغلب عليها الطابع العشائري أيّ دير الزور والحسكة والرقة في الشمال الشرقي ودرعا في الجنوب أدواراً متناقضة بشدّة في الثورة.

ورغم أنّ مراكز المدن في الحسكة ودير الزور والبوكمال كانت بين أوائل الذين استجابوا لدعوة "يوم الغضب" مطلع شباط/فبراير 2011، فإنّ العشائر المتواجدة حول هذه المدن لم تنضم للاحتجاجات.

مع أن الظروف تدفع لتكون كلا المنطقتين الشرقية بكاملها والشمالية الشرقية من سوريا، أوّل من يخرج عن سيطرة النظام. حيث يشكّل سكاؤها أقلّ من 20% من سكان سوريا، وتمتد أراضيها على رقعة واسعة تغطي أكثر من نصف مساحة البلاد وتتحكّم بالحدود السورية مع العراق وتركيا. ولعلّ الأهم من ذلك أنّ هاتين المنطقتين هما الأكثر فقراً في سوريا، وتنتجان مجمل النفط ونحو ثلثي محصول القطن والقمح.

أنت سلبية العشائر إزاء الثورة نتيجة عقود من سياسة الأسد التي استغلّت التنافر بينها وفاقمته، وفي حالة عشائر الحسكة حرّضتها لتكون ثقلاً موازناً ضدّ الأكراد الذين يشكلون الأغلبية في مدينة القامشلي المهمة<sup>10</sup>. إذ سُمح لأفراد العشائر العربية بامتلاك الأسلحة الشخصية وحملها في الأماكن العامة. يضع دوركهام خريطة مفصلة للعشائر التي بقيت موالية للنظام وخصومها الذين عارضوه، كما يبين تغرير التحالفات العشائريّة مؤكداً

<sup>8</sup> كتب دوركهام أنّ الطريق السريع عمان-دمشق يقطع منطقة كانت معروفةً بنشاطات التهريب حتى قبل الحرب الأهلية السورية، وقد أدت هذه المنطقة الدور نفسه عقب انفجار الاحتجاجات. ويصف العابد درعا بأنّها مركز للفساد والتهريب والابتزاز حتى قبل الثورة. كما يعزو تعيين العديد من شخصياتها في مناصب عليا إلى انتماء هذه الشخصيات لعشائر صغيرة لم تكن لتشكل أي خطر على النظام (2015: 6).

<sup>9</sup> بعد عدّة أشهر من انطلاق الثورة وضع الشرع تحت الإقامة الجبرية زعماء أنه قد عارض الطريقة الوحشية للنظام في مواجهة الاحتجاجات.  
<sup>10</sup> قام المؤلف بين عامي 1990 و1993 بجولة زيارات لمدينة القامشلي والقرى الممتدة إلى الحدود العراقية. وفي زيارتين له استقبله اللواء محمد منصور ابن عم حافظ الأسد والحاكم المطلق للجزيرة ورئيس فرع المخابرات العسكرية المسؤول عن مراقبة المعابر الحدودية مع العراق وتركيا. اعترف منصور أنّه لن يوظّف ولم يوظّف كرتياً واحداً "جميع رجالنا من القبائل العربية في المنطقة. محمد الفارس شيخ عشيرة شمّار هو أكثر رجل أثق به". مُنع الكرد في الحسكة من تحدّث لغتهم كما عُزبت الأسماء الكردية لجميع القرى (مقابلات مع الكاتب، 7 أيلول/سبتمبر 1990، و12 شباط/فبراير 1992).

على حقيقة أنّ جميع شيوخ العشائر في الحسكة والرّقة عارضوا بدايةً الخروج على النظام بخلاف مدن هذه المحافظات (دوركهام، 2014: 17-1). وفي الواقع، يعترف بعض شيوخ العشائر، بما فيهم أولئك الذين هم اليوم على استعداد لحمل السلاح ضد داعش بوقوفهم ضدّ الثورة<sup>11</sup>.

ولمّا أُجبرت قوات النظام وأجهزته الأمنية على الانسحاب من المنطقتين الشرقية والشمالية الشرقية، اتّخذ التنافس بين العشائر المختلفة أو بين فروع العشيرة الواحدة شكلاً آخر. فظهر بينها التنافس على تحصيل أكبر قدر من غنائم الحرب الجارية. وبذلت العشائر المختلفة ولاءاتها بين جبهة النّصرة وداعش، اعتماداً على التي بمقدورها أنّ تؤمن الحماية الأفضل والمكاسب المادية الأوفر. فحسب العايد "ربما كانت المناطق العشائرية أول موطن قدم للجهاديين السلفيين في سوريا. ويقول النشطاء إنّ جبهة النّصرة قد تأسست في بلدة الشحيل قُرب دير الزور (مقتبس)". ويفضل دعم قبيلة العقيدات أكبر قبائل دير الزور غدت جبهة النّصرة أقوى جماعات المنطقة، إذ التحق معظم أبناء القبيلة بالمجاهدين، مما أتاح لها السيطرة على عدد من الحقول النفطية بالمحافظة. إلّا أنّه، "عندما حاولت الجبهة [جبهة النّصرة] بسط يدها على الحقول الأخرى اندلعت الاشتباكات بينها وبين بقية العشائر" (العايد 2015: 5-6). وفي خضمّ هذا اشتكت قبيلة أخرى أنّها لم تتل حصّتها، ما دفع عدداً كبيراً من أبنائها للانضمام إلى داعش. وإلى جانب الاقتتال على الغنائم، كان البحث عن الحماية والاستفادة من فرص العمل حافظاً آخر لانضمام العشائر الأصغر إلى الجهاديين، ويخلص سامر عبود في دراسة عن اقتصاد الحرب في سوريا إلى أنّه "في المناطق القبلية، قامت الكثير من نشاطات التمرد على الأسد أو التأييد له بناءً على المصلحة: التهريب، والسيطرة على الحدود، والنفط ... الخ"<sup>12</sup>.

## من المدن إلى الأحياء فقيرة

يقول الفهم السائد إنّ الانتفاضة السورية انطلقت من درعا في 11 آذار/مارس 2011، وليس في ذلك إنصاف للشعب السوري، كما أنّه لا يساعدنا على فهم ديناميات ثورته. إذ كان الشهر السابق للانتفاضة شديد التوتر في دمشق، فقد تطوّرت الوقفات الاحتجاجية لمُناصرة الثورتين المصرية والليبية والتي شارك فيها العشائر إلى مظاهرة حاشدة في سوق الحميدية في 17 شباط/فبراير 2011 حيث قُدّر عدد المشاركين فيها بـ 1500<sup>13</sup>.

ولئن كان من المستحيل تحليل الخلفيات الاجتماعية للمتظاهرين أو أولئك الذين دعموا الإطاحة بنظام الأسد، فمن الجائز النكّه أنّ قسماً كبيراً من الطبقة الوسطى في المدن والبلدات الريفية الكبرى قد لعب دوراً فعّالاً في إشعال الانتفاضة. يشهد على ذلك العدد الكبير من المثقفين والفنانين والرجال والنساء الجامعيين، ونشطاء المجتمع المدني والعاملين فيه، ممن خرجوا إلى الشوارع وأصدروا البيانات والتصريحات والعرائض مع اليوم الأول للثورة. وخلافاً لما حدث عام 1982 عندما ثار الشعب في حماة تحت شعارات الإخوان المسلمين

<sup>11</sup> تعتبر الخلافات التاريخية بين القبائل العربية والأكراد السبب الرئيسي للمشكلة المستعصية التي تواجه الولايات المتحدة في محاولتها حشد القبائل العربية في المنطقة وإقناعها بالانضمام إلى الأكراد من أجل شنّ هجوم ضدّ داعش.

<sup>12</sup> سامر عبود، تعطيل اقتصاد الحرب. مركز كارنيغي للشرق الأوسط، 19 أيار/مايو 2015.

<http://carnegie-mec.org/experts/?fa=809>

<sup>13</sup> للحصول على التسلسل الزمني لأهم الأحداث خلال العام الأول من الثورة، أنظر: "الجدول الزمني في سوريا: كيف تصاعدت وتيرة أحداث النزاع"، الغارديان، 28 شباط/فبراير 2012.

<http://www.theguardian.com/world/syria>



الصريحة؛ خرج الدمشقيون تحت شعارَي: الحرية والسُّلمية. وباستثناء درعا حيث تظاهر الناس للمطالبة بالثأر لوفاة اثنين من الصَّيبية تحت التعذيب؛ فإنَّ جميع المظاهرات والاعتصامات اللاحقة في بانياس واللاذقية وحمص ومن ثمَّ في حلب لاحقاً تشاركت نفس الشعارين، كما غاب عنها بدرجة كبيرة رجال الدِّين باستثناء أعداد قليلة منهم<sup>14</sup>.

فالقضية التي ينبغي معالجتها إذاً ليست قضية انطلاق الثورة من مدينة درعا البعيدة عن مجريات الأحداث، وإنما لماذا لم تُلَقَّ أحداث دمشق صدى في بقية أنحاء البلاد؛ إذ يمكننا من هذا المنطلق بحث الثورة السورية على أنها تنتمي إلى فئة خاصة بها إذا ما قورنت بنظيراتها التونسية، والمصرية، والليبية، واليمنية: لا لأنها بدأت من درعا، بل لأنَّ أحداث درعا قد أوقدت الشرارة التي عجزت عنها العاصمة. كذلك نجد أنَّ للثورة فنتها الخاصة عندما نأخذ بالاعتبار أنَّ هذه الشعلة التي أوقدتها درعا قد انتشرت إلى المدن والمحافظات الأخرى قبل أن تصل إلى دمشق بعد أسبوع لتأتي هذه المرّة على شكل مسيرة احتجاجية مؤلفة من بضعة مئات فقط. في حين استغرق الأمر شهراً كاملاً قبل أن تشهد حلب أولى مظاهراتها الحاشدة.

ولماذا لم تتزامن الانتفاضات السياسية في جميع المحافظات والمدن في عصر التواصل الاجتماعي وفي بلد تقول الدلائل إنَّ غالبية سكانه يتطلعون لتغيير النظام القائم فيه؟ صحيح أنَّ المصير المأساوي للصبيّين في درعا وانتفاضتها اللاحقة قد أحاطا المشهد ببحر من التعاطف وأبرزوا الغضب المنصبَّ على النظام، حيث بدت البلدات الريفية في المناطق القبليّة الأخرى كالحسكة ودير الزور الأكثر حماساً للانضمام إلى الاحتجاجات. غير أنَّ القطيعة بين الريف السوري والحواضر السورية مختلفة عن تلك السلبيّة التي قوبلت بها الثورة المصرية في مناطق الصعيد الريفية، ولكنَّ عسكريّة الثورة السورية أظهرت للعيان هذه التصدّعات العميقة وأثرها على مسار الثورة، والتي ستلعب بالتأكيد دوراً حاسماً في تحديد شكل الصراع ونتيجته.

ويجب التأكيد على أنّه لم يكنَّ اللجوء إلى الوسائل العسكرية خياراً في سوريا بل ضرورة. فدمشق ليست القاهرة ولا تونس، وليس فيها جيش محترف غير مسيّس ألقف إلى جانب الشعب الذي استبسل كي يحافظ على سلميّة ثورته. فالقوة القهرية ذات العقائدية الإملانية الراسخة عنصرٌ لا غنى عنه في أي نظام استبدادي. وكما ساقطت مجريات الأحداث إلى عسكريّة الثورة؛ بدأت ذهنيّة راديكالية جديدة بالظهور، وهي ذهنية تنبش الأسوأ في أيّ مجتمعٍ تمّ تسطيح ثقافته السياسية على مدار عقودٍ من الحكم الأحادي (الخفاجي: الثقافة السياسية، 2000).

ولما كانت القوات المسلحة النظامية لا تتدخل كقوة ضامنة، بدأ المزيد والمزيد من أفراد الجيش من ذوي الرُتب الدنيا وصف الضباط والجنود بالانشقاق، وتشكّل في نهاية المطاف الجيش السوري الحر<sup>15</sup>. لقد حملت النتيجة الحتميّة لهذا التطوّر تغييراً جذرياً في طبيعة الثورة، وأصبحت المدن الكبرى خارج المشهد، فأولئك الذين يعيشون في ضواحي المدن الكبرى، والجموع المهمّشة والمهاجرون من الريف لم يعودوا الآن يتظاهرون في

<sup>14</sup> تاريخ الأحداث للفترة ما بين 2011 – أواسط 2012 والتي أدت إلى النزاع المسلح والمبنيّة على "الجدول الزمني في سوريا: كيف تصاعدت وتيرة أحداث النزاع"، الغارديان، 28 شباط/فبراير 2012. في حالة المغالطات الواضحة تمّ الرجوع إلى مصادر أخرى.  
<sup>15</sup> إن التمرّد الذي قام به الجنود في جسر الشغور في 7 حزيران/يونيو 2011، كان واقعة الانشقاق الجماعي الوحيدة في صفوف الجيش.

الشوارع أو يهاجمون المقرّات الحكومية إنّما زاد اعتمادهم على المواجهات المسلحة. ويات بمقدور الميليشيات المسلحة الآن جذب ثلّة ضخمة من الشبّان العاطلين عن العمل المتواجدين بكثرة في ضواحي المدن الكبرى.

وقد يملك الخبراء العسكريون أجوبةً لأسئلةٍ من قبيل: لماذا لم يردّ النشطاء على وحشية النظام بإطلاق حرب عصابات في المدن؟ وعمّا إذا كان مثل ذلك ممكناً، أو هل كانت حرب العصابات لتكون أكثر فاعليّةً بالتوازي مع الحرب التقليدية؟ بغض النظر، فاللجوء إلى استراتيجية الحرب التقليدية لإبعاد جميع الأنشطة العسكرية الأخرى عن داخل المدن له مضامينه الكبيرة، إذ كان إنذاراً مبكراً إلى حقيقة انحسار دور المدن أو حتى زوالها في المعركة ضدّ الأسد. وقد وجدت وحدات الجيش المنشقة التي كانت مهمتها الأساسية تأمين حماية المظاهرات السلمية أنّ من المستحيل مواجهة آلة الحرب الساحقة للنظام، وتحوّلت بدلاً من ذلك إلى تحرير البلدات خارج المدن الرئيسية، تاركَةً المظاهرات في الضواحي المتناثرة كالميدان ودوما لمصيرها. ومع هذا التطوّر، أصبحت الثورة السورية مرادفةً للمعارك الدائرة على الأرض وليس للاحتجاجات الجماهيرية أو غيرها من أشكال النشاطات اللاعنفية.

فالانتفاضة التي بدأت في دمشق ضاق أفقها بسرعة مع قيام الثورة في درعا، لكنّ الطّور الثالث من الثورة قد بدأ الآن. وبما أنّ الحرب قد أتت بقيادةٍ جدد ليحتلوا مراكز الصدارة، وكلُّ منهم ينادي بشعاراته الخاصة المستقاة من المهتمشين اجتماعياً واقتصادياً في البلدات الفقيرة وعشوائيات المدن، فقد كان لعودة الثورة تأثير كبير على المسار اللاحق للأحداث إذ أحدثت شرخاً عميقاً بين سكان المدن والبلدات الريفية، والأحياء الفقيرة، وربما تكون قد وجهت ضربةً قاضيةً للدعوات الأولى المتطلّعة إلى إقامة نظامٍ ديمقراطي تعدّدي.

وللإحاطة بسمات كل مرحلة من هذه المراحل، من الضروري التمييز بين فئات السكان الثلاثة التالية: سكّان الأرياف، وسكّان الأحياء الفقيرة وسكّان المدن لا سيما الفقراء منهم. ونعرّف هنا البلدة الريفية أو النائية بأنها تلك التي يعمل غالبية سكانها في الأنشطة الزراعية أو تربية الماشية أو الخدمات المرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، والتي تعتمد على المدن الكبرى في عمليات التمويل والتسويق للعالم الخارجي.

إنّ الخلط بين فقراء المدن، وأهالي البلدات الريفية، وسكان الضواحي في المدن الكبرى، والنازحين الذين تغصُّ بهم العشوائيات تحت عنوان "الفقراء" هو أمرٌ مضلّ. وأولئك الذين يعمدون إلى ذلك إنّما يتكوّنون على الملاحظات البسيطة غير المتعمقة، كالفقير المشترك و/أو الالتصاق ببعض أشكال الإسلام المحافظ. ولنن كانت التحوّلات الاجتماعية-السياسية والاقتصادية في المشرق قبل ستين عاماً تحمل أيّ دلالة، فإنّ فقراء المناطق الحضرية الذين يعيشون في ضواحي المدن يتشاركون من القِيم مع غير الفقراء من سكّان هذه المدن أكثر ممّا يتشاركونه مع الفقراء من سكان المناطق الريفية. فالفقير وحده ليس شرطاً كافياً لخلق شعور التضامن. إذ ينتمي فقراء الحواضر إلى الطبقات العاملة بالمعنى الدقيق للكلمة، أيّ الحرفيين وصغار الكسّبة والموظفين ومعلمي المدارس وما إلى ذلك؛ وترتبط مجالات نشاطهم ارتباطاً وثيقاً بالمدينة، وهم في حياتهم اليومية يتفاعلون مع أشخاصٍ من أصولٍ إثنيةٍ متعددة يحملون معتقدات دينية مختلفة، وقد لا يختلف إسلامهم عن الإسلام الذي

يمارسه غالبية سكان المدن. وبالتالي لا تهدف وسائلهم بالتعبير عن احتجاجاتهم إلى تدمير النسيج الاجتماعي بأكمله.

على نقيض ذلك، يتشارك المهاجرون وسكان البلدات الريفية جزءاً يسيراً من القِيم مع نظرائهم في المناطق الحضرية. ويبدو أنهم غير متجانسين، تقريباً، من حيث الإثنية والتدين والتنشئة الطائفية ومستويات التحصيل العلمي وأنماط الحياة. كما أنّ تصورهم عن الجهة التي تقوم باضطهادهم يركّز على الاختلاف الإثني والديني. وهكذا، تجنح أيديولوجياتهم وأساليبهم في التعبير عن معارضتهم إلى نفس المعايير الحالية (الخفاجي، 2004: 171-183).

وفي هذا السياق سجّل كيلكولن وروزنبلات الملاحظة التالية: "لقد خلق هؤلاء القرويون بدافع الحاجة الاقتصادية والجفاف المستمر، أحياء واسعة معزولة من الفقراء في المناطق الحضرية. النمو الاقتصادي... أجبر هذه المجتمعات التي كانت ريفية على الاتصال شبه المباشر مع ثراء المدينة. لقد بدأ هؤلاء الفقراء، وهم الذين قد كانوا يبعُدون أشواطاً عن حياة المدن المنفتحة، يرون بأعينهم الأغنياء المستفيدين من السياسة الاقتصادية الجديدة التي ضاعفت في السنوات العشر الماضية الناتج المحلي الإجمالي في سوريا ثلاث مرات" (2014: 35). إلا أنّهما قد جازفاً بخسارة القيمة التحليلية لملاحظاتهم عندما أضافا: "إنّ الريف لا يوصّف المزارعين القرويين فقط، بل وأيضاً فقراء المدن الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة المنتشرة حول المدن السورية" حيث قاما بتصنيف المهمّشين على أنهم ريفيون. ومن أجل إثبات وجهة نظرهما، تسرّر كيلكولن وروزنبلات على العديد من الحقائق الهامة المتعلقة بمسار الثورة السورية.

أولاً: إنّ الانخراط الكثيف للمهمّشين قد حظي بزخمه فقط بعد اندلاع الاحتجاجات الواسعة في مدينتي درعا ودير الزور البعيدتين. أمّا بالنسبة لحلب، بما في ذلك جانبها الشرقي الفقير، فقد بدأت الاشتباكات الدامية بين القوات الحكومية والسكان بعد ذلك بأشهر. ثانياً: وربما الأهم، إنّ بعض حركات التمرد الأولى بدأت في الضواحي الفقيرة لدمشق وليس في "الأحياء الفقيرة المنتشرة حولها". فبغض النظر عن الطريقة التي يُعرّف بها المرء "القرى الريفية" أو "الأحياء الفقيرة" سيكون من السخف وصف الميدان، أو برزة، أو القابون كما سبق.

مئات الآلاف من سكان المناطق الحضرية يشكلون الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين، ويسكنون هذه الضواحي التي لم تُدرج ضمن الحدود الإدارية لمحافظة ريف دمشق، بل تمّ اعتبارها الضواحي المكوّنة لدمشق. وقد حدث الهجوم الدموي الأول لقوات الأسد على ضواحي دمشق في الميدان إلى شمال دمشق، والذي إلى جانب أنّه يعود إلى مئات السنين فهو لم يشهد أية تغيّرات ديموغرافية هامة على مدار عقود. وينطبق الشيء نفسه وإنّ بدرجة أقل على الضواحي الجنوبية برزة، وبرزة البلد، والقابون، التي شهدت بعضاً من أعنف المعارك طوال ما يقارب الثلاث سنوات.

أخذ هاتين الملاحظتين بالاعتبار سيجعل مفهوم "أشكال الثورة الجديدة" تافهاً؛ لأن الثورات التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط خلال النصف الثاني من القرن العشرين كانت شيئاً لا يمتُّ إلى الثورات بصلة. وفي تحليلي لجذور الثورات/الانقلابات بين خمسينيات وستينيات القرن العشرين في كلِّ من مصر، والعراق، وسوريا، وحتى الثورة الإسلامية في إيران عام 1979، كنت قد بيّنت أنّ هذه الثورات قد أُطلقت ودُعمت من قبل أولئك المنحدرين من البلدات الريفية والذين همّشتهم الأنظمة القديمة، إذ شعروا أن الأنظمة الاجتماعية الموجودة آنذاك قد أعاقت حراكهم الصاعد (الخفاجي، 2004: 171-205).

## العسكرة: إطلاق الجنّي

بدا الانقسام العميق بين مناطق المدينة والريف واضحاً منذ مراحل مبكرة من عسكرة الانتفاضة، وربما استشعر أهالي المدن قبل ذلك وطأة المقاتلين المهمشين على أساليب حياتهم. وقد تجلّى هذا الانقسام في الاحتكاكات بين المقاتلين أنفسهم.

ومع أنّ العديد من ضباط الجيش السوري الحرّ ينحدرون من الريف، والكثير منهم يضمّر مشاعر الاستياء من سيطرة نظرائهم العلويين على مواقع الامتيازات؛ إلا أنّ استقرارهم وعملهم في المدن ربما جعلهم أقرب إلى أسلوب حياة المدنية. وهكذا عكس الخلاف بين الجيش السوري الحرّ والميليشيات الإسلامية هذه الطرق المتباينة في رؤية الثورة، وتحديد العدو، وتحديد الأهداف التي سعى كلُّ منهما لتحقيقها. وفي غضون أقلّ من سنتين على الانتفاضة استطاع مراسلٌ لصحيفة وول ستريت جورنال تلقّف هذين النمطين الفكريين المتعارضين بشدة، ولمّا كان يعيش بين الفصيلين وصف الصحفي التنافسية بين السيد سلامة، قائد لواء التوحيد، والعقيد العكيدي من الجيش السوري الحرّ الذي "يدير العمليات من فيلا مترامية الأطراف في الشمال الغربي لمدينة حلب". لقد كان العقيد ضابطاً سابقاً في جيش الأسد و "يحظى بدعم النخبة الحضرية في حلب. ويرفض القادة الريفيين". وكان المراسل شاهداً على اجتماعٍ عاصف بين الاثنين، وفيه صاح العقيد في وجه قائد التوحيد: "هل تعرفُ حتى كتابة اسمك بالعربية ثلاث مرات دون أن تخطئ؟" وقد قال العقيد العكيدي، دون الخوض في تفاصيل الاجتماع، عن قادة الأرياف: "لديهم طريقتهم في التفكير، ولدينا طريقتنا"<sup>16</sup>.

لقد كان الصدام بين عنصري المعارضة المسلحة حتمياً، كما كانت نتيجته شبه معروفةٍ سلفاً. إذ انقسم الجيش السوري الحرّ الذي لم يجد أمامه إلا أن يتخلى عن استراتيجياته ليتوافق مع قيم المقاتلين المهمشين، الذين تفوق أعدادهم كثيراً عدد عناصر الجيش السوري الحرّ ذات التوجهات الحضرية، أو أن يخاطر بفقدان جنوده الذين ينحدرون من ذات الأرياف المهمشة والأحياء الفقيرة<sup>17</sup>. وقد يفسّر هذا الانقسام جزئياً عدم ترحيب كثيرين من سكان المدن بالمقاتلين الذين تمكنوا من الدخول إلى مدنها وبلداتهم -موقفٌ دفع بعض المراقبين إلى الاستنتاج الخاطئ بأنهم يؤيدون النظام. واستُخدمت في بعض الأحيان لهجةٌ ساخرة في وصف السلوك غير الترحيبي أو حتى المعادي إزاء المقاتلين. كتب مراسل صحيفة جلوب آند ميل "يخشى أغنياء سوريا الثوار أكثر مما

<sup>16</sup> تشارلز ليفنسون "تصدّعات القيادة تعيق الثوار السوريين"، وول ستريت جورنال، 10 أيلول/سبتمبر 2012.

<sup>17</sup> ليس الغرض من هذه الورقة التركيز على المشاحنات وقوة الصراعات السياسية بين أحزاب المعارضة المختلفة وبين الجيش السوري الحرّ الذي يفقد التنظيم، والتي كان لها تأثير كبير على مسار الثورة لاحقاً.

يخشون ألام الأسد. فبالنسبة لهم، هذه انتفاضة الفقراء، وثورة الريف. فسكان المدن العلمانيون الذين يتحدثون الفرنسية ويحتسون الإسبرسو لم يكونوا جزءاً منها وهم بشكل متزايد مضطرون للتعامل مع الآثار الحقيقية للثورة<sup>18</sup>.

ومما لا شك فيه، أنّ لمواقف الطبقات دوراً جوهرياً في إعادة تحديد التصوّرات عن موقف الجماهير خلال الأحداث المحورية كالثورات. فقد قوبل تحرير الثوار للمناطق التي تغلب عليها الطبقة العاملة الفقيرة في شرق حلب وجنوبها وشمالها بترحيب السكان. ولكن تقدّمهم توقف تقريباً بمجرد اقترابهم من جزء المدينة الغربي الأكثر ثراء والمختلط طائفيّاً. وصفت صحيفة لوس أنجلوس تايمز هؤلاء الثوار بأنّهم "المحاربون الرثون القادمون من أنقاض المدينة القديمة: الفلاحون والعمال والميكانيكيون والنجارون الذين جاؤوا من الريف هذا الصيف ليحرروا المدينة اللاهية المنسجمة مع إيقاعات التجارة".

ونرى هنا، أنّ الهويّة الطبقيّة وليست الهويّة السنيّة هي من باعدت بين العالمين. "هؤلاء المتمردون الذين دخلوا حلب من الضواحي شبه الريفية المتعصّبة، والمناطق الزراعية لم يجدوا فيضاً من الدعمّ العفوي، ولا بحراً من الخلايا النائمة التوّاقة للانضمام إلى الثورة. وبدا العديد من أصحاب المحال التجارية في المدينة التاريخية القديمة يتحاشون الاتصال البصري مع الجحافل الوضيعة"<sup>19</sup>. وتقتبس الصحيفة أيضاً للمراسل الذي رافق المتمردين "الذين لم يتمكنوا من الهرب من الإحساس المصاحب لقوّة محتلة".

كما أنّ الديناميكيات المبنية على أساس طبقي قد ولّدت نظرة سلبية عن المعارضة بين السنتّة الذين ظلوا مواليين لنظام الأسد. فالنظر إلى المعارضة على أنّها حركة تعتمد على الأرياف يقوّدّها متدينون متشددون، وفقراء، وقرويون من غير المثقفين نفّرت قطاعات واسعة من السنتّة في المناطق الحضرية، ممن يملكون القليل من القواسم الاجتماعية المشتركة مع إخوانهم في الدّين<sup>20</sup>. إذ ينظر العديد من سكان المدن إلى ميليشيات المتمردين المتشددة بارتياب، إن لم يكن بعداء. وقد لاحظ جوشوا لانديس في وقت مبكّر من عام 2012: "ينظر سكان المدن بشكل متزايد إلى الثورة على أنّها حربٌ ضدهم بقدر ما هي ضد الأسد، تجعلهم يصطفون مع النظام على مضض"<sup>21</sup>.

إلا أنّ الاعتماد على التحليل الطبقي المختزل عند محاولة فهم التآثيرات الاجتماعية لمثل هذه الأحداث غاية في التبسيط. فقبل الانتفاضة بوقت طويل أظهرت أجزاء من البرجوازية السورية العداوة للنظام بسبب المحسوبية والفساد الدّين خنقا أعمالها، في حين شكّل آخرون تحالفات مع العائلات والقادة المتنفّذين ودعموا النظام بتفانٍ شديد (الخفاجي، 2004: 272-296). ويظهر الاقتباس المأخوذ من صحيفة وول ستريت جورنال أعلاه أن زعيم الجيش السوري الحرّ العقيد العكدي "يحظى بدعم النخبة الحضرية في حلب".

<sup>18</sup> ستيفن ستار، "الحرب السورية، كانت ثورة الأرياف، والآن تهدد النخب في المدينة"، ذا غلوب أند ميل، 7 شباط/فبراير 2013.  
<sup>19</sup> فريق تحرير لوس أنجلوس، "في سوريا، متمردو البلدات الصغيرة عالقون الآن في مدينة حلب الكبيرة"، ذا لوس أنجلوس تايمز، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 2012. [articles.latimes.com/2012/nov/05/world/la-fg-syria-aleppo](http://articles.latimes.com/2012/nov/05/world/la-fg-syria-aleppo)  
<sup>20</sup> كريش زاميليس، سنة سوريا ومرونة النظام، كومياتنغ تيروريزم سنتر، 8 أيار/مايو 2015.  
<sup>21</sup> جوشوا لانديس، الانتفاضة السورية لعام 2011: لماذا من المحتمل أن يصمد الأسد إلى 2013، ميدل إيست بوليسي كونسل، ربيع 2012، المجلد XIX، رقم 1.

إنّ موقف بعض البرجوازيين في حلب المتأرجح أو حتى المعادي لأولئك الذين حرروا الجزء الشرقي من مدينتهم لا ينبغي أن يفسّر على أنّه دعمٌ لنظام الأسد؛ فصعود الميليشيات الريفية المسلّحة قد أدى إلى تصلّب وقساوة نظرتهم.

ومع ذلك، ليس فقط سكان المناطق الحضرية لا يثقون بالمليشيات المسلّحة. فالأخيرة بدورها لا تثق بسكان المدن بما في ذلك الفقراء منهم والذين رحبوا بها ترحيباً حاراً عندما دخلت الأجزاء الشرقية من حلب. فقد نقلت رويترز عن زعيم إحدى الجماعات المتمردة شارحاً الأسباب التي دفعتهم إلى التقدّم إلى الجزء الشرقي من حلب بدلاً من الرّهان على انطلاق ثورتها من الداخل، قوله: "انتظرنا وانتظرنا أن نشور حلب، لكنّها لم تفعل. لم نستطع الاتكال على أنّهم سيقومون بالثورة بأنفسهم، لذا توجّب علينا أن نجلب الثورة لهم"<sup>22</sup>. أظهرت هذه الملاحظة حقيقة أنّه رغم ترحيب الفقراء من سكان المدينة بالمحررين فهم ليسوا بالضرورة متعاطفين مع المسلحين.

وبالتالي لا يمكن تصنيف العلاقة الإشكالية بين الفقراء من سكان المدن والمسلحين من باب الفقر المشترك. فالمحللون والمراسلون الذين يظهرون التناقض بين المدن وضواحيها أو سكّانها الفقراء إنّما ينقلون ضمناً رسالةً مفادها أن الضواحي والأحياء الفقيرة هي أماكن عيش الطبقات العاملة في حين أنّ المدينة هي معقل البرجوازية. وفي الاقتباسات الكثيرة التي استخدمتها في هذه الورقة، هناك تفسير متكرر لسيطرة المعارضة المسلّحة على قرى وبلداتٍ صغيرة، أو ضواحي محددة: إنّ هذه الأماكن هي موطن الطبقات العاملة، مما يعطي الانطباع بأنّ المقاتلين والطبقات العاملة في المدن هما شيءٌ واحد. إلاّ أنّه من الضروري التمييز بشدة بين هاتين الفئتين. حيث تنحدر الميليشيات المسلّحة من مجموعة ضخمة من المهمشين والذين ربما يشكلون أكبر مجموعات المجتمع السوري. وتضمّ العاطلين عن العمل (الذين تراوحت نسبتهم قبل الثورة ما بين 25%-35% من السكان الذين هم في سن العمل)، والقرويين المشردين الذين ملؤوا المدن الكبرى، وعمال الورشات، وما إلى ذلك.

على النقيض من ذلك، تتألّف الطبقات العاملة "المستقرة" أو "المؤسّسة" من الفقراء الذين يسكنون في المناطق الحضرية ويجنون دخلاً ثابتاً لكنّها هزيلة. وهذا يشمل سائقي سيارات الأجرة وأصحاب المتاجر الصغيرة وضباط الصف وصغار الكسبة وموظفي الدولة والعمال في مصانع الدولة والمعلمين... الخ، وتعتمد معيشة معظم هؤلاء الفقراء في مناطق المدينة على الدولة. فوفقاً للأرقام الرسميّة، اعتمد 1.4 مليون شخص في عام 2010 على الرواتب الحكوميّة. (المكتب المركزي 2011: الجدولين 3-4). ويفرض أنّ الأسرة المعيشية تتألّف من أربعة إلى خمسة أشخاص، فهذا يعني أن ما لا يقلّ عن خمسة ملايين فرد يستمدون دخلهم من العمل لدى الدولة، وهو ما قد يفسر جزئياً سبب عدم إضراب أو اعتصام العمال أو موظفي القطاع الحكومي.

<sup>22</sup> إريك سولومون، "المقاتلون الريفيون يزحفون إلى حلب السورية للمعركة"، 29 تمّوز/يوليو 2012. <http://rueters.rs/1dwTIVT>

إذاً من المنطقي تماماً أن تُضمَر الطبقات العاملة "المستقرة" أو "المؤسسة" مواقف متضاربة تجاه المعارضة المسلحة. فكلاهما ينتمي إلى الفئات الفقيرة في المجتمع، وكلاهما يعارض النظام. إلا أن الطبقات العاملة "المستقرة" تختلف عن المعارضة المسلحة من حيث أنها تقاسم سكان المدن وجهات نظرها والمظهر الخارجي لعالمها أكثر بكثير مما تتقاسمه مع طبقات المعارضة المسلحة. وقد أغفلت هذه النقطة من قبل العديد من المراقبين والمحللين الذين يعتقدون أن المدن كوزمبوليتية ولا-دينية.

كما أنه ليس هناك دليل على أن هذه الطبقات العاملة التي انتفضت ضد النظام ورحبت بالمقاتلين في أحيائها أو مدنها قد انخرطت بشكل جماعي في النشاطات المسلحة. وتُصِفُ هنادي الخطيب نمطاً أوسع من الارتياح المتبادل بين نظرة سكان مناطق المدينة إلى الثورات ونظرة سكان مناطق الريف إليها، والتي وفقاً لرأيها، تختلف شدتها من محافظة إلى أخرى". بدأ سكان المدن ينظرون إلى الريفيين على أنهم "مخربون" للثورة، حيث كانوا قد انضموا إليها في الأونة الأخيرة، في حين كان الريف ينظر إلى المدينة على أنها "مستودع" لشبيحة الأسد [لجان الدفاع الوطني] ومرتزة النظام"<sup>23</sup>.

لم نسمع طوال هذه الحرب عن أية ضاحية أو بلدة صغيرة على مشارف إحدى المدن الكبرى قام سكانها بتنظيم أنفسهم في مجموعات عسكرية بهدف إسقاط النظام. فقوات المعارضة المسلحة التي سيطرت على الموقف تكونت بشكل دائم تقريباً من أشخاص أتوا من أماكن أخرى. وهذا يتناقض تماماً مع حال المناطق القبليّة في الحسكة ودير الزور حيث نظمت القبائل نفسها في وحداتٍ مقاتلة<sup>24</sup>. وقد لاحظ أحد الصحفيين القلائل الذين بقوا في دمشق خلال السنة الأولى من الثورة أن "المتمردين الذين بدأوا الموجة الأخيرة من الهجمات لم يكونوا من هذه المناطق. وأنهم يستخدمون هذه المناطق كقواعد لشن هجماتهم ضد قوات الأمن"<sup>25</sup>. وبالتالي من المفضل استنتاج علاقات سببية مباشرة بين شدة المعارضة عند الفقراء والترحيب الذي قدموه للجماعات المسلحة في بلداتهم أو أحيائهم الفقيرة. إذ نأت كثير من البلدات التي نشطت في مرحلة الاحتجاجات السلمية بنفسها عندما تمت عسكرة الثورة. كذلك نظرت المعارضة العسكرية بعين الشك إلى المتظاهرين السلميين الذين كانوا في الغالب من مناطق المدن. ويمكن استخلاص هذا قياساً من خلال كثرة حوادث الخطف والاحتجاز لبعض النشطاء المعروفين.

من ناحية أخرى، فإن العديد من بلدات ضواحي دمشق المسكونة من السوريين ذوي الدخل المنخفض لم تأخذ دوراً فاعلاً في الاحتجاجات أو أنها لم تكن مفتوحة للمسلحين. الإحصاءات التي قدّمتها إحدى منظمات المجتمع المدني<sup>26</sup> التي تقوم بتوثيق الضحايا الذين سقطوا نتيجة المواجهات العسكرية تكشف هذا الأمر. ففي حين بلغ عدد القتلى في دوما 6000، وفي المعصمية 1500، كان عدد الضحايا في بلداتٍ أخرى في ضواحي دمشق أقل من عشرة قتلى: عدرا البلد، يعفور، عربين، وسلطانة.

<sup>23</sup> هنادي الخطيب "تجاوزات وانفلات الأمن في إدلب... وتظاهرات تدعو لفساد الفصيل، الحياة، 17 تموز/يوليو.  
<sup>24</sup> لم يكن هذا حال المناطق التي لم ينضم سكانها إلى الهدف المباشر "الإطاحة بالأسد"، الكرد في الحسكة وحلب، والدروز في السويداء إذ قامت كل منها بتشكيل جماعاتها المسلحة الخاصة.  
<sup>25</sup> زينة خصور، الصدع السوري المتفاجم بين المدينة والريف، مدونة الجزيرة، 8 تموز/يوليو 2012.  
<sup>26</sup> وثقت Syrianshuhada.com لغاية 30 أيلول/سبتمبر 2015 ما يقارب 140.000 ضحية. يستعرض التوثيق المعلومات المتوفرة عن الضحايا حسب البلدة، المحافظة، وغيرها من التصنيفات.

## الخلاصة: اليوم التالي

من دون الانغماس في التحليلات العسكرية أو السياسية ومع بعضٍ من الخيال، دعونا نسأل: كيف ستبدو التركيبة الاجتماعية، إذا ما افترضنا أنّ تسويةً سياسية تحققت غداً؟

من الواضح أنّ التسوية بعيدة المنال من دون إشراك المجموعات المسلحة الإسلامية "المعتدلة" الرئيسية على الأقل، ومنجها حصّةً في هيئات صنع القرار وإدارة البلاد. وهذا ليس فقط تكريساً لعلاقات القوّة العسكرية-السياسية السائدة بين نظام الأسد ومعارضيه. بل هو تكريسٌ لعلاقات القوّة الجديدة بين المدن والضواحي والمهمشين. أو بعبارة أخرى، إنّ توازن القوى المترتب عن ذلك يعكس التغيّرات الاجتماعية العميقة التي كانت قد بدأت قبل ثورة 2011 والتي وجدت متنفّسها السياسي خلال السنوات الخمس الماضية. إذ يجسد أصحاب السُلطة الجُدُ صعود الفئات المهمّشة ونجاحها المحتمل في الاندماج بنسيج المجتمع الحضري، وهو ما يعني أنّ المدن السورية الكبرى قبل الحرب ستخضع لعملية تزييف كاسحة، وأنّ الطبقات المتوسطة والفقيرة من دمشق، وحلب وغيرهما من المدن الكبرى ستجد نفسها مُحيّدة.

وقد تبدو الاحتمالات مختلفةً بالنسبة لطبقة رجال الأعمال السُنّيين المحافظين الذين استطاعوا خلال عقود من حكم العلويين إيجاد منافذ لهم أو حتى تطوير أعمالهم بفضل مهاراتهم في إقامة الشراكات مع شخصيات وعائلات متنفّذة داخل هيكل السلطة البعثية. وسيكون من الطبيعي أنّ هذا النمط من التحالفات التجارية سيزدهر مع الأغنياء الجدد في نظامٍ ستكون شرعيّته نهاية المطاف معتمدة على الإسلام السُنّي.

وقد يكون تفسير القادمين الجدد للإسلام السُنّي أكثر ترمّماً من تفسير التيّار الإسلامي الرئيسي في المدن السورية. ولكن باستثناء زمرتي الطبقة الوسطى والطبقة العليا من سكان المدينة، كان المجتمع السوري في جميع الأحوال قد بدأ ينحرف مبتعداً عن القيم والمبادئ العلمانية قبل عقود من الثورة. لذا فلن يكون هناك سببٌ إيديولوجي لاحتكاك سكان المدن مع النخبة السياسية الجديدة، أي أنّ الصّدّام سيكون بين الإسلاميين والعلمانيين، بعيداً عن الصورة الملمّعة التي تنقلها وسائل الإعلام الغربية والعديد من وسائل الإعلام المحلية عن السوريين من سكان المدن بأنهم منفتحون ويشبهون الغرب.

إنّ الصّدّام بين الإسلاميين الذين يتحاصصون السُلطة وبين غالبية سكان المدن هو صدام بين وجهتي نظر، كما حاولت هذه الورقة أن تُظهر. إنّه صراعٌ بين المهمشين وأولئك "المؤسّسين" حتى الفقراء منهم ولكن بدرجاتٍ متفاوتة الشدّة. بالطبع فإن الفقراء في المناطق الحضرية ذوو مصالحٍ مشتركة مع المهمشين حيث كلاهما يعاني الفقر والاستبعاد، كما أن بعض سكان المدن السُنّيين الذين يفهمون عداؤهم مع نظام الأسد من منظور طائفي يشتركون أيضاً مع المهمشين بالشعور المعادي للعلويين. إلا أنّ مسار الثورة/الحرب السورية قد أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ أياً من هذه الفواسم المشتركة لا يستطيع أن يطغى على الانقسامات المجتمعية العميقة بين سكان المدن، والضواحي، والقبائل، والأرياف والمهمشين رغم أنّ هذه الهويات لم تكن أبداً إقصائية لبعضها البعض.



فلقد تكشّف ما قد بدأ كاحتجاج/انتفاضة مدنيّة ضد الاستبداد والفساد عن ثورة المهّمّشين ليس فقط ضدّ النظام السياسي القائم ولكن أيضاً ضدّ النظام الاجتماعي القائم. فالشباب العاطلون عن العمل، والمستبّعدون، والمُعدّمون، والمُهانون، والفقراء الذين نشؤوا في سوريا التي لم تقدّم لهم أيّ معنىّ للانتماء؛ باتوا الآن مسلحين مدججين وهم يشعرون أنّ الوقت قد حان لإصلاح العالم كي يتوافق مع تطّعاتهم. ومع شبح الجهاديين في الأفق، والمواجهات المسلحة التي تُفاقم الانقسام بين المدينة والبلدات النائية، لم يعد سكان المدن يجدون أنفسهم واقفين إلى جانب نظام الأسد أو منحازين للمعارضة المسلحة، لقد أصبحوا ببساطة يشعرون أنّهم منحشرون بين جموع الأطراف المتحاربة. واختفى ببساطة حلم حقبة ما بعد البعث التعدّدية الديمقراطية.

## المراجع والمصادر

- خالد أبو إسماعيل، علي عبد القادر، وهبة الليثي (2011)، الفقر وعدم المساواة في سوريا (1997-2007)، الورقة العامة 15/2011، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، القاهرة ونيويورك.
- عبد الناصر العايد (2015) الجهاديون والقبائل السورية: الهيمنة العابرة والمعضلة المزمنة، مبادرة الإصلاح العربي، باريس.
- إغناسيو ألفارثز-أوسويو، وإغناسيو جوتيريز دو توران (2012) النجبة الحاكمة في سوريا وفشل النهج القمعي، برايشز فيران ازركويردو إد. الأنظمة السياسية في العالم العربي: المجتمع وممارسة السلطة.
- حنّا بطاطو، (2002)، فلاحو سوريا، أبناء وجهانهم الريفيين الأقل شأنًا، وسياساتهم، برنستون يونيفرسيتي برس، نيوجيرسي.
- أولي براون وآليس كراوفورد (2009) ارتفاع الحرارة، وارتفاع التّوتّر: التّغيّرات المناخية وخطر اندلاع نزاع مسلّح في الشرق الأوسط، المعهد الدولي للتنمية المستدامة، وينغ، مانيتوبا، كندا.
- ماري كالدور (2001) الحرب الجديدة القديمة، بوليتي برس، كامبريدج.
- المكتب المركزي للإحصاء (2010 و 2011)، الموجز الإحصائي السنوي لسوريا، دمشق.
- المكتب المركزي للإحصاء (2012) نتائج المسح الاجتماعي والاقتصادي لمحافظة الحسكة، دمشق.
- جيمس سي. دافيس (1962) نحو نظرية الثورة، مراجعة علم الاجتماع الأمريكي 27(1):5-19.
- فرانسيز دو شاتيل (2014) دور الجفاف وتغيّر المناخ في الانتفاضة السورية: فك الاشتباكات بين بنادق الثورة، دراسات الشرق الأوسط، المجلد 50.
- حيان دورخان (2014) القبائل والقبلية في الثورة السورية، مجلة الدراسات السورية، الإصدار 6، العدد 2.
- <http://ojs.st-andrews.ac.uk/index.php/syria/article/view/897/746>
- ليون تي. غولدسميث (2014) دائرة الخوف: علويو سوريا في الحرب والسلام، هورست بيليشرز، لندن.
- بيتر هارلينغ، وسارة بيركي (2012) ما وراء سقوط النظام السوري، مديل إيست ريبورت.
- ميشيل كيهر، وكرايغ إدز. لاركيم (2014) علويو سوريا: الحرب، المعتقد والسياسات في المشرق، هورست بيليشرز، لندن.
- عصام الخفاجي (1994) ما وراء الدولة فوق-القومية، مديل إيست ريبورت، العدد 187-34-188-40.
- عصام الخفاجي (2000) الحرب كأداة لصعود وزوال المجتمع المحكوم بالدولة، في ستيفن هايدمان (محرراً) الحرب، المؤسسات والتغيّرات الاجتماعية في الشرق الأوسط، يونيفرسيتي أوف كاليفورنيا برس، بيركلي، لندن: 258-292.
- عصام الخفاجي (2002) جذور الثورة: تحليل مقارنة للديناميكيات الاجتماعية في التغيير في الشرق الأوسط، الصفحات 3-51، أثناء إجراءات ورشة عمل دولية، رقم 4، معهد تطوير الاقتصاد، طوكيو.
- عصام الخفاجي (2004) الولادة المتعسرة: الانتقال إلى أوروبا والشرق الأوسط، آي.بي. تاوريس، لندن وماكميلان، نيويورك.
- عصام الخفاجي (2010) آفاق مشروع مساعدة الأحزاب السياسية في الشرق الأوسط وأفريقيا، دراسة مكتبية طلبها مجلس إدارة معهد الديمقراطية متعددة الأحزاب (غير منشور، لاهاي).

- مصطفى خليفة (2013) التقسيم المستحيل لسوريا، مبادرة الإصلاح العربي، باريس.
- خضر خضور (2014) طرطوس في ظل الأزمة الحالية: مرآة للنظام السوري، جدلية، جورج تاون.
- دايفس كيلكولن ونات روزنبلات (2014) "صعود فقراء الأرياف السورية: لماذا ستدور رحى الحرب من أجل مستقبل سوريا على امتداد القرى الريفية الجديدة من البلد"، جامعة الدفاع الوطني، برايمز، مركز العمليات المعقدة، المجلد 4، الإضافة السورية، الصفحات 33-41.
- علياء ماليا (2006) قاطرات التاريخ: الثورات وصناعة العالم الحديث، يورك يونيفرستي بريس، نيو هافن ولندن.
- مايكل مان (2005) الجانب المظلم للديمقراطية، مطبعة جامعة كامبريدج، كامبريدج.
- فرانز ماريك (1966) فلسفة الثورة العالمية: مساهمة في مختارات من نظريات الثورة، انترناشونال ببلشرز، نيويورك.
- كارول آي. أوليري ونيكولاس هراس، "الشبكات القبلية السورية وانعكاساتها على الانتفاضة السورية"، تيروريزم مونيتور، المجلد العاشر، العدد 11، حزيران 2012.
- وليامز إتش. أوفر هولت (1977) نظرية الصراع التنظيمي للثورة، أمريكان بيهيفيورال سينتست، المجلد: 20.
- مايكل رستين (2002) الإمبراطورية: نظرية ما بعد الحداثة للثورة، نيو بوليتيكال إيكونومي، المجلد 7، الإصدار 3.
- ديفيد شونديرباوم (1980) ثورة هتلر الاجتماعية، نورتون أند كومباني، نيويورك ولندن.
- هيئة تخطيط الدولة بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في سورية (2008) الفقر وعدالة التوزيع في سوريا، دمشق.
- مركز التواصل والأبحاث الاستراتيجية (2011) الفجوة بين الأغنياء والفقراء في سوريا: تحليل السياسات (لا مكان للنشر)
- تشارلز تيلي (1993)، الثورات الأوروبية 1492-1992، بلاكويل، أوكسفورد.
- نيكولوس فان دام (1979) النضال من أجل سوريا: السياسة والمجتمع في ظل الأسد وحزب البعث، آي. بي. توريس، لندن ونيويورك.
- كارل وبع (2015) منظمات الميليشيات الحضرية والريفية في المناطق الخارجة عن السيطرة من سوريا، جورنال أوف تيروريزم ريسيرتش، المجلد 6، العدد 3: 35-61، ومركز دراسة الإرهاب والعنف السياسي (نسخة PDF).
- أحمد وصفي زكريا (1982)، النسخة الأصلية من المجلد 1، 1945، المجلد 2، 1948 "عشائر الشام (قبائل سوريا الكبرى)"، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق.

## عن الكاتب

عصام الخفاجي أكاديمي وباحث يحمل شهادة دكتوراه في العلوم السياسية وأخرى في الاقتصاد. درّس في جامعة أمستردام وجامعة نيويورك وجامعة يال. كما كان مستشاراً لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية (UNDP) للشأن السوري، ومستشاراً للأمم المتحدة للشؤون العراقية. وهو باحث مشارك في معهد الشرق الأوسط في واشنطن، ومحرّر مساهم في "تقرير الشرق الأوسط" في واشنطن. وقد ألف خمسة كتب باللغتين الإنكليزية والعربية وأبحاثاً ودراسات وفصولاً ومقالات، تُرجم العديد منها إلى لغات أخرى.

## عن مبادرة الإصلاح العربي

"مبادرة الإصلاح العربي" هي مؤسسة عربية رائدة ومستقلة للبحوث الفكرية، تأسست عام 2005 لصياغة برامج منبثقة عن المنطقة من أجل تحقيق التغيير الديمقراطي. تلتزم المبادرة في عملها بمبادئ الحرية والتعددية والعدالة الاجتماعية. وتقوم بالأبحاث السياسية، وتحليل السياسات، وتقدم في الوقت نفسه منبراً للأصوات المتميّزة والشابة. يشرف على عمل "مبادرة الإصلاح العربي" مجلس الأعضاء وهيئة تنفيذية.

- نقوم بإنتاج بحوث أصيلة يقدمها خبراء محليون، وننتشرها مع مؤسسات عربية وعالمية لنشرها وتوزيعها.
- نسعى لتحفيز الأفراد والمؤسسات على تطوير رؤيتهم الخاصة للحلول السياسية والاجتماعية.
- نقوم بحشد الأطراف المعنية لبناء تحالفات تسعى لتحقيق التغيير.
- نهدف لأن تشهد الدول العربية صعود مجتمعات ديمقراطية عصرية.



مبادرة الإصلاح العربي، نيسان/ أبريل 2016

[www.arab-reform.net](http://www.arab-reform.net)

© 2016 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، [اضغط لقراءة الرخصة](#)

[الكاملة](#)

[contact@arab-reform.net](mailto:contact@arab-reform.net)